بين الترادف والتوارد (*)

الاستاذ عبدالعزيز بنعبدالله
عضو أكاديمية المملكة المغربية

إن المفهوم التلقائي لأية كلمة، ينبثق من محتوى هذه الكلمة نفسها دون اعتبار محيطها ككلمة أمس الدالة على اليوم الذي قبل يومك وكلمة البارحة التي تعبر عن أقرب ليلة مضت. غير أن الكلمات والأشياء قد تلتبس فيها أحياناً بعض المفاهيم فنخلط على مستوى الألفاظ بين مدركين معنويين (مثل الخوف والرهبة) فنتحدث آنذاك عن الترادف وهو الاشتراك في المعنى) (synonyme) أو بين أشياء كالسيارة والشاحنة فيتعلق الأمر آنذاك بالتوارد أي توارد الأفكار والخواطر حول مفهومين متقاربين (analogie). ففي خصوص الترادف قد لا نجد لفظين يوصفان بأنهما مترادفان يؤديان نفس المعنى دون أن يكون هذا الترادف جزئيا فقط، فكلمة أسد تعبر عن النوع في حين أن كلمة (ضرغام) مثلا تبرز معنى زائداً لدى الأسد وهو الشدة وكذلك لفظة (هزبر) التي ينطوي مبناها على مفهوم إضافي في مادة (هزبرة) وهو الغلظ والضخامة، فهي صفات أو نوع من الشيات (nuances) أي اختلافات دقيقة بين أشياء تنتمي لنفس الفصيلة : وهذه الشيات أشبه ما تكون بالدرج التي يمر منها اللون في سلّم الفروق والتباين ، فالشاعر العربي إذا عبّر في الجاهلية بكلمة خاصة عن مفهوم ، فإن هذا المفهوم لا يكون اعتباطيا بل ينطبق على مستوى خاص من المستويات التي تتدرج فيها المترادفات. على أن إدراك دقة اللفظ العربي في مفهومه الأصيل أصبح صعب المنال، إن لم نقل مستحيلاً، لاسيما اذا اعتبرنا أن اللفظ كائن حي يتطور، وأن تجميده في مستوى جاهلي أو عصر المحدثين والمولدين قد يعرقل هذا التطور. فلذلك اتسمت اختيارات علماء اللسان بشيء غير قليل من المرونة يتبلور في تحديد نطاق المفهوم — ولو عبرنا عنه بغير اللفظ الموضوع له — طبقا للسياق (contexte) بل إن قرائن هذا السياق تطورت هي نفسها من قرائن لسانية صرف الى عناصر حية تصاحب اللفظ وتكيف المفهوم وقد تتسع لتشمل جوانب تاريخية (وهي السياق التاريخي) (historique) أو اجتماعية لسانية (socio-linguistique) ، تسجل اللهجات في تباينها تبعاً لاختلاف المجتمعات. فالسياق اللساني قد يبرز تطابق أو تباين كلمتين من خلال دلالتهما الناتجة عن الإطار الزمني أو المكاني للاستعمال أي في نطاق ما تعوّد الناس تصوره عند سماع الكلمة أو وضع الكلمة داخل الجملة ، فالصفة إذا تقدمت الموصوف قد تفيد معنىً زائداً .

أما السياق الاجتماعي اللساني فقد أصبح له اليوم أثر كبير بسبب تمازج اللغات واللهجات كنتيجة حتمية لامتزاج الشعوب والمبادلات المصطلحية بين الألسن المختلفة، في حين أن الكلمة الجاهلية لم تكن تتجاوز حدوداً ضيقة ربما اتسعت في العصر الأموي ثم في العصر العباسي، ولكن في نطاق عروبي إسلامي غير شمولي وقد استحال التقلص المصطلحي الى امتداد وانبساط وتشعب وانتشار بفضل المكانة التي أصبحت للغة الضاد منذ العصور الوسطى على الصعيد العلمي والحضاري وخاصة اليوم، حيث انضافت

(*) راجع القسم الاول من معجم المتواردات في هذا العدد . (الجزء الثاني الخاص بالمعاجم) .

معطيات جديدة في حقول سياسية واقتصادية وحضارية أوسع.وهكذا فقد تختلف لفظتان «مترادفتان» الواحدة عن الأخرى معنىً وسياقاً،في حين يضفي المجتمع عليهما مفهوماً جديداً تحت تأثير مقتضيات خاصة ، وقد أصبح للاختيارات المجتمعية في بلدان عربية رائدة أثرها في تكييف الاضطلاع خارج إطار النواميس اللسانية المعهودة،وهذا هو بعض ما يسمى أحيانا باللحن المشهور الذي يفضل على الصواب المهجور،ولذلك انكبت بعض المجامع — عن حق — على تصويب صيغ شاذة رعاية للتأثيرات اللسانية الاجتماعية في الوطن العربي كلاً أو جزءاً قديماً أو حديثاً ولذلك أيضا تحتم علينا المقتضيات المعاصرة أن نعجن المصطلح من جديد عجناً يتلاءم مع متطلبات العصر وانسياقاً مع مختلف التأثيرات الاجتماعية اللسانية ، فالحركة المعجمية المعاصرة يجب أن تظل حية معطاءة تكيف المفهوم في إطاره العلمي والتكنولوجي الحضاري الحديث،فالمراجع التي نستقي أو يجب أن نستقي منها الدلالات والألفاظ الدلالية معاً هي مجموع متكامل يضم الى جانب المفردة الأصيلة اللون الجديد الذي يحدد محتوى المدرك كما يتلمس غوضى الترادف السطحي في نطاق ثنائي يوفق بين أصالة الكلمة في جذرها أو تاريخها وبين الهيكل الاجتماعي اللساني المتطور،فللأدب الحديث وللصحافة المعاصرة ولمختلف وسائل الاعلام طلع في إقامة هذا الهيكل وتغذيته ولعل لتواؤم هذه العوامل مفعولاً حتمياً في ترصيص تطابق المفرد ومفهومه وتبسيط الدلالات ورفع اللهجات « العامية » الى مستوى فصيح تتقارب فيه اللهجات الإقليمية أو المحلية.فهذه الشمولية في كينونة المفردة العربية وحيويتها هي التي ستنقذ لغة الضاد من التشتت بفضل انتقالها من شمولية محلية الى امتداد عالم على الصعيد العالمي،لاسيما وأن العربية لم تعد اداة تعبير محصورة في الإطار العربي بل تجاوزته الى أبعاد أممية في شتى المجالات.وربما كان هناك في الواقع عامل آخر يكيف في الخفاء اختياراتنا وعطاءاتنا وهو العامل النفساني أي تأثير الوعي الباطني السليم — الذي قلما تختلف ماهيته وروحه لدى الانسان الواعي مهما تكن جنسيته — ففي هذا المسار الطبيعي يمكن للمصطلح أن يعيش وأن يتوالد متواكباً مع مثيله الذي انبثق واكتمل على نفس الوتيرة،وليس معنى هذا أنه يجب أن نهمل ولو كلمة واحدة من معجمنا الأصيل، وإنما يلزم أن نرصص ونرصن هذا التراث طبقاً لمقتضيات عصرنا دون إغفال ذلك التيار الفياض الذي جعل من لغة الضاد لغة الحضارة والعلم طوال ثمانية قرون عبر البحر الأبيض المتوسط.واذا كان سلفنا الصالح قد استطاع بلورة هذا العطاء فإن العاملين الاساسيين الذين أسهما في تكييف ذلك وتوجيهه هما: أولا شعور هذا السلف بسموّ أصالته ورصانة ذاتيته مما قلص أو استبعد كل احساس بالنقص أصبح يتجلى في تشبثنا بسطحيات بدل التغلغل في الأعماق،فقد استعمل السلف كلمة (فيزيقا) في شكلها الدخيل وكذلك كلمة (اريطماتيقا) لأنهم كانوا منشغلين ببناء كيان العالم المعاصر (آنذاك) علمياً وتيكنولوجياً وحضارياً.والعامل الثاني الذي ساعدهم على خلق هذه الشمولية من خلال لغة الضاد هو فكرهم الموسوعي مما حدا الإمام (ابن حزم) الى القول بأنه لم يكن يعرف في بلاد الأندلس رجلين اثنين بين علمائها لم يكونا يتقنان الى جانب العربية لغات أخرى أهمها الإغريقية واللاتينية.فهذا الطموح الفياض على الصعيد الانساني،هو وحده الكفيل بخلق لغة تتواكب مع العصور وتستجيب لمتطلبات الكينونة المستمرة الفياضة،التي ساعدت العلم على ان ينطلق أول ما انطلق من العربية ومن خلال العربية — كما يقول المستشرق الفرنسي (ماسينيون) — ويفتح لها آفاقاً واسعة لتكون إحدى لغات السلام والتخاطب بين الأمم.ففي هذا الإطار نودّ ان نجعل اليوم في متناول العرب وغير العرب ممن شغفهم جمال هذه اللغة وروائها ومنطقية بنيتها وبساطة هيكلها — جهازاً يساعدهم على إدراك الإمكانات الشاسعة والأبعاد المتناهية التي يوفرها للعربي المعاصر هذا المقوّم الحضاري الأول الذي هو لغة الضاد .